كروتشه ومعالم الهيجلية الجديدة

عتوتي زهية ،باحثة ،مخبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها
تخصص الفلسفة والتشكلات الثقافية المعاصرة "أبنية وممارسات"
جامعة تلمسان

لا نعتقد أن دارس الفلسفة والمشتغل باشكالياتها المؤسسة لجوهر الخطاب الفلسفي بإمكانه تعقب صيرورة هذا الحس النقدي الأصيل دونما عودة ملزمة فرضتها تيارات ومدارس كبرى كان لمفكريها منعطفا حاسما في تاريخ الفكر والمعرفة،فلا يمكننا إثارة السؤال الفلسفي دونما عودة إلى هذا التراث إما تأملا أو تجاوزا .في هذا السياق لم تكن الفلسفة المعاصرة منقطعة عن التراث الفلسفي السابق بدءا من التأصيل الإغريقي للحظة الفلسفية ،بالمقابل هناك عودة للفلسفة الحديثة وتجديد القراءة لتياراتها والانفتاح على مجالات البحث المثارة.

من أهم هذه التيارات الفكرية ما يسمى "بالهيجلية الجديدة"التي تدين في منطلقها الأول إلى هيجل باعتباره الفيلسوف الذي استطاع أن يفرض حضوره القوي في الفكر الغربي عبر تعدد مجالات البحث وتنوعه "يدين التناول التاريخي للفن والدين والأدب بصورة لا تقل عما تدين بها الفلسفة بالكثير لهيجل ،وربما لم يكن لمفكر أخر منذ كانت باستثناء نيتشه تأثير يمكن أن يقارن بتأثير هيجل"1 .أما في الفكر العربي فحسن حنفي يعتبر أن فلسفة هيجل من أوع ما شهدته الإنسانية في تاريخها من مذاهب فكرية ،إن لم تكن أروعها على الإطلاق ،فهيجل هو الذي يقسم الفلسفة

الأوربية إلى حديثة ومعاصرة وهو الذي يقسم العالم الى معسكرين رأسمالي واشتراكي ،إنه انقسام عبرت عنه تيارات الهيجلية الجديدة التى انطلقت من مرجعية هيجلية لتشكل حسب رينيه سرو عودة إلى هيجل بعد أفول طويل وتحتل الصدارة من خلال اقترانها بتيارات شديدة التعارض أحيانا.

انقسام أتباع هيجل:

لقد برز هذا الانقسام بعد وفاة هيجل عبر معسكرين يميني تأثر بلاهوت هيجل وحاول استغلاله في بعث جديد للبروتستانتية ،أما الجناح اليساري فيتألف من الهيجليين الشباب وأشهرهم فويرباخ وكارل ماركس ،كما برز التيار في الدانمارك مع كيرجارد وفي انجلترا مع مور وراسل وعبر جون ديوي في الولايات المتحدة عن هذا الإرث أما في فرنسا فقد اعتمد جون بول سارتر في كتابه الوجود والعدم على هيجل وفي ايطاليا طور كروتشه التقليد الهيجلي 2.

فما سر هذه العودة المعاصرة إلى هيجل في ايطاليا ؟وما بواعث استلهام المثالية الجديدة؟

هناك مجموعة من المعطيات التاريخية والفلسفية بررت هذه العودة ،فسياسيا كانت الحركة الفكرية المستندة إلى مرجعية هيجلية مرتبطة بحركة الوحدة وتأييد الدولة القومية " ففي المرحلة الأولى كان على القومية الايطالية أن تدخل في صراعها في صراع مع الكنيسة الكاثولكية ، التي رأت أن الأماني القومية الايطالية ضارة بمصالح الفاتيكان وكانت الاتجاهات البروتستانتية في المثالية الألمانية تقدم سلاحا فعالا للسلطة في صراعها مع الكنيسة"3من جهة أخرى تزايدت التناقضات التي صاحبت عملية تعديل الاقتصاد القومي الذي شهد حالة من التخلف الشديد من هنا كان على الدولة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن تفكر في "كفاءة وإدارة مركزية وصناعة رشيدة ،واستعداد عسكري تام ضد العدو الداخلي والخارجي وهذه المهمة الايجابية للدولة المثالية الجديدة في ايطاليا تميل في اتجاه الموقف الهيجلي "4من هنا وجدت الدولة الفاشية في فلسفة هيجل التي استغلت سياسيا وصفا مناسبا للدولة باعتبارها الكلي الذي يعلو على المصالح الخاصة ويتحقق في كل تنظيمات وقوانين الدولة باعتبارها تتويجا للحياة الأخلاقية من حيث أن الفكرة هي المنبع الداخلي للسلوك وتتحدد بذلك الأخلاق الاجتماعية في تظافر الارادة الذاتية مع الارادة الكلية.أن طموح الدولة الفاشية المعبر عنه في مفكرها سارجيو بانينسيو sergio panuncio أكثر من ربط بين هذه الدولة ودولة هيجل العضوية الذي نشأ في عصر الوحدة الألمانية تحت سلطة بروسيا والإمبراطور فريدريك الثاني حيث بحث عن سبل أفضل لإقامة دولة الوحدة وهذا مبرر لتسميته بفيلسوف الدولة .يمكننا تحديد بوادر الفكر الهيغلي في منتصف القرن التاسع عشر في نابولي حيث ارتبط التيار بسابافانتا (1817-1883)وفيرا (1813_1885) ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدت معالم هيجلية متطورة عند كروتشه وجانتل.

2-بنديتو كروتشه ومرتكزات الاستمرار والتجاوز للفكر الهيجلي :

لقد انفتحت الفلسفة الايطالية المعاصرة على المذهب المثالي الهيجلي للاعتبارات المذكورة وقد بدت بوادر هذا التأثير واضحة في الفكر الكروتشي الذي وصف هيجل بأنه "أحد العباقرة التأمليين الذين ظهروا في تاريخ الفلسفة ،انه عبقري من طراز أفلاطون وأرسطو وديكارت(...)بعد هيجل لم تظهرا لا عقولا أقل منه مرتبة" 5ان هذا الاهتمام برز عند كروتشه منذ1907 حينما أصدر كتابه الهام حول هيجل الموسوم ب"**ما هو حي وماهو ميت في فلسفة هيجل** cequi est vivant et cequi est mort de la philosophie de hegel"

حيث يمكن تمييز توجه نقدي انتقائي للمواقف الفكرية الهيجلية كما برز المؤلف الثاني حول هيجل سنة1952 والذي حمل عنوان **أبحاث عن هيجل** essais sur hegel فضلا عن توجه مجلة **النقد** la critica التي أسست مع جانتيل وراهنت على تيارهيجلي جديد في ايطاليا .

إذن فقد كان هيجل ملهما لكروتشه الذي يحسب على التيار المثالي بربطه بين الحقيقة وما هو فكري وروحي "فالعقل بالنسبة إلى هيغل هو في الواقع جوهر التاريخ بالذات انه يعتقد مع انكساغورس بأن العقل يسوس العالم وبأن كل شيئ في التاريخ أو غيره قد جرى بصورة عقلية"6 هذا التصور يبرز بقوة عند هيجل بقوة في فينومينولوجيا الروح حيث يرتقي الوعي من المعرفة الحسية صوب العلم المطلق ،بدورها تتأثر فلسفة كروتشه بخطى هيجل حينما تطابق بين الفكر والحقيقة "فالروح في نظره هي الوجود الحقيقي الوحيد وليس الوجود الطبيعي إلا تركيبة من تأليف العقل "7ذلك أن الروح عند كروتشه يتجلى بنشاطين أحدهما نظري والأخر عملي فأما الأول فيتحدد من خلال مظهرين إما جمالي يتبدى في المعرفة الحدسية التي أداتها المخيلة بينما المظهر النظري يبدو في المعرفة المنطقية التي وسيلتها العقل ،أما النشاط العملي للروح فيظهر في الاقتصاد ويسعى إلى تحصيل المنفعة العملية .

إن النزعة المثالية الكروتشية تعتبر موقفا مضاد للفلسفة الوضعية التي امتدت منذ القرن التاسع عشر ذلك أن العالم عند كروتشه نتاج خلق الفكر الإنساني le monde et la cration de l'esprit humain بالتالي "لا تصبح مهمة الفلسفة ادراك حقيقة خارجة عن الفكر وعالية عليه إنما إدراك لحياة الفكر"8 وتعقب هذه التجليات الفكرية كثيرا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ما يتضح جماليا عبر استقصاء مسلمات الخبرة الجمالية ومرتكزات فلسفة الفن الكروتشية ،كما يمكننا تأمل مسار الروح عبر بعده التاريخي ومعالم هذه النزعة التاريخية.

3– فلسفة الفن بين منطلقات الحدس ومقتضيات الخبرة:

تحدد الموسوعة الفلسفية شهرة كروتشه الرئيسية إلى ميدان علم الجمال باعتباره يمثل صورة من صور المثالية الهيجلية وأن لم يكن قد أقامها بناء على فلسفة هيجل ،ذلك أن التجاوز قائم.

إن هذه النظرة الجمالية برز عبر المجلد الأول من فلسفة الروح كما كتب كروتشه مقالا حول الاستيتيقا في الطبعة الرابعة عشر من الموسوعة الكبرى البريطانية وأفكاره اندرجت في إطار ما يسمى بالنقد الجديد حيث تأسست نظرة تركيبية جمالية تدين بامتداداتها الفكرية حسب أسجون أرنسAsjorn Arnesالى الثقافة الأوربية عبر تعدد مصادرها ،إذ يذكر بول فاليري في مؤلفه أزمة الروح أن الإنسان الأروبيhomo europeus يعبر عن ملتقى ثقافات ثلاث، يونانية

ورومانية ومسيحية وكروتشه واحد من هذه التركيبة الفكرية 9.

يعرف كروتشه الفن بأنه رؤيا وحدس ،انه انبثاق الوعي وتعبيرات الروح بما يوحي لإنكار لكل التفسيرات المادية الفزيائية فالفن أكبر من يكون ألوانا أو نسب بين ألوان أو أن يكون أشكال وأصواتا ونسبا بين أصوات انه يفوق مستوى البناء المادي.إن هذا المنطلق الروحي للحقيقة مبرر لإلحاق المفكر بالتيار الهيجلي إلا أن هناك اختلاف مميز للطرح الكروتشي ذلك أن الروح عند كروتشه ليست هي الله أو الفكرة ولكنها الواقع والخبرة ،فالحدسintuitionليس مجرد معرفة مباشرة زائفة بل إنها معرفة البناء والتركيب ،في كل ذلك تبرز أهمية العاطفة التي تفجر الحدس"إن العاطفة هي التي تهب الحدس تماسكه ووحدته ،فإنما كان الحدس حدسا حقا لأنه يمثل عاطفة ومن العاطفة وحدها يمكن أن يتفجر الحدس"[10]ليتحدد الهدف من ذلك في فيض من الصور الإبداعية التخيلية المنسجمة والمعبرة ،فيصح أن **العاطفة بدون حدس عمياء والحدس بدون عاطفة أجوف** .إن الطابع المنتج للحدس يبرز في كونه نشاط وفاعلية إنسانية تفتح إمكانية تحويل الفكري إلى موضوع وصور تعبيرية"الواقع أننا لا نعرف إلا حدوسا معبر عنها ،فالفكرة لا تكون بالنسبة إلينا فكرة إلا إذا أمكن أن تصاغ بألفاظ ولا اللحن الموسيقي يمكن أن يكون لحنا موسيقيا ما لم يتحقق بأنغام "[11]هكذا يتميز حدس الصور عن الحدس الزائف الفارغ من دلالته التعبيرية والخال من الوحدة الجامعة بين المضمون والصور في علاقة جدلية يتداخل فيها البراني بالجواني فتصبح الصور شعورا وامتلاء ،إنها الفكرة التي يدافع عنها هيجل معتبرا أن الفن الحقيقي يتوخى التوافق بين الخارج والداخل "فالجميل هو المطلق في وجوده الحسي ،باعتبار أن الفكرة المطلقة تتلألأ ضمن حدود المظهر الحسي،إن دور الفن هو أن يكون الوسيط الموفق بين الواقع الخارجي المحسوس والفاني وبين الفكر المحض "[12]إن الفن بهذا المعنى لا يبعدنا عن الواقع الإنساني بل يقربنا منه **فلئن كان الشعور يسمو بالبشر ،فانه لا يسمو بهم فوق ذواتهم ،بل داخل ذواتهم** هذا السمو الفني عبر مختلف تعبيراته أبعد ما يكون عن نشدان لذة أنية ضيقة ومحدودة ،بل إنه يتسع ليطال العمق الروحي والإنساني.

4-بين الفن والأخلاق :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يميز كروتشه بين ما هو فني وما هو أخلاقي ،فللخطاب الفني قواعده وسياقه فلا يتعين علينا أن نلزمه بما يتجاوزه محملينه رسالة أخلاقية على غرار الموقف الهيجلي المحدد لغاية الفنون فيما هو أخلاقي خالص يسعى الى تلطيف الهمجية من خلال " تنشيط الإرادة الأخلاقية وبتعزيزه إياها ،بحيث تتاح للنفس القدرة على الوقوف في وجه الأهواء بصورة فعالة ،ناجعة "[13]لكن إذا كانت رسالة الفن لا أخلاقية حسب كروتشه مخالفا بذلك التوجه الهيجلي فالفنان من حيث هو إنسان ليس خارجا عن سلطان الأخلاق "إنه لا يستطيع أن يتحلل من واجباته كانسان وينبغي أن ينظر إلى الفن نفسه على أنه رسالة وأن يمارسه كواجب مقدس"[14]معنى ذلك أن الخطاب الفني إذا كان متميزا عن الخطاب الأخلاقي فهذا لا يعني أنه ينفلت من الضوابط والالتزامات الأخلاقية التي ترتبط بالفنان من حيث هو إنسان.

5- النقد الفني و التقاطع التاريخي:

ليست مهمة النقد غلا فلسفة تسعى لفهم الفن وتعلل أداءه مميزة بين الجميل والقبيح في ظل رؤية تاريخية "إن نقد الفن حين يكون فنيا حقا وتاريخيا حقا ،يتسع في الوقت نفسه ويصبح نقدا للحياة لأنه لا يستطيع أن يحكم على الآثار الفنية ،أي أن يحدد لها خصائص بدون أن يحكم في الوقت نفسه على أثار الحياة بكاملها "[15]إنه التداخل الفني التاريخي الذي عبر عنه كروتشه سنة 1893 بمذكرة عنوانها **رد التاريخ إلى مفهوم الفن** وبالتالي تحديد أسس النزعة التاريخية في مؤلفه **التاريخ بوصفه فكرا وبوصفه علما** حيث برزت اعتراضات على التوجه الهيجلي.

يبقى أن تشير في إطار مباحث كروتشه الفنية أن التأثير الهيجلي بدى في مرجعية الروح المؤسس للفعل لكن كن منظور كروتشي يتحدد الفن باعتباره حدسا لكن ليس بمعناه العقلي كما اتضح عند شلينغ ولا بمعناه المنطقي كما هو لشأن عند هيجل ،بل إنه يتحدد باعتباره صورة المعرفة في فجرها ،**إنه هذه الصورة الأولى التي بدونها لا نستطيع أن نفهم الصورة التالية لموالية** .هكذا تتضح اتجاهات هذه الفلسفة والتي تميز فيها كروتشه حسب أسجون أرنس في أنه لم يحدد موقفه الجمالي انطلاقا من تكملة نظرة نسقية كما هو الشأن بالنسبة لبعض الاتجاهات فلسفة الفن ولكنه من خلال خبرة تجريبية مكنته من تشكيل هذه الرؤية بناء على معرفة حميمية وحب فائق لما هو فني.

5-اعتراضات كروتشه التاريخية على هيجل:

يميز هيجل في "العقل في التاريخ "بين مستويات التحليل التاريخي والتي تظهر من خلال التاريخ الأصلي الذي يتعقب الأحداث المعاصرة وتاريخ نظري الذي يتجاوز حدود الفترة والحاضر بينما التاريخ الفلسفي يتأمل الأحداث بوصفها حركة عقلية " إن العقل يسيطر على العالم إن تاريخ العالم يتمثل أمامنا بوصفه مسارا عقليا" [16]حيث يحقق الروح ذاته عبر خيارات الإرادة والمصالح والأنشطة باعتبارها وعي بالحرية في جدل يسير بين تعارض للفكرة وللصور المقابلة لها **إن الفكرة تسير نحو تعارض لا متناه** بالمعنى الهيجلي .إنه الجدل الذي حظي بتقدير كروتشه من حيث أنه يعبر عن حركية الفكر وتطوره ورفضا لمنطق السكون والثبات إلا أن هذا لا يعفيه في صورته الهيجلية من مؤخذات يبرها كروتشه في النقاط التالية:

أ-نقد جدل التناقض:

تفسر الصيرورة التاريخية حسب هيجل بالفكرة ونقيضها والمركب بينهما الذي بدوره يصارع صوره المقابلة لكن كروتشه يتوقف عند هذا الموقف متسائلا "لو كان الوجود والعدم ماثلين كما برهن هيجل على ذلك أو كما اعتقد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فكيف يمكن أن تتشكل الصيرورة التي يجب أن تكون موجودة كتركيب للمتناقضات وليس كأشياء متماثلة"[17]ذلك أن تقدم التاريخ لا يتضمن صراع الأضداد بالضرورة فقد يحدث ذلك بالمماثلة والموافقة والإجماع حول الفكرة.بهذا الطرح يكون هيجل قد طابق بين المسار التاريخي والمسار المنطقي معتبرا أن التاريخ عملية منطقية في الأساس تحتكم إلى ما هو زماني لكن " القضايا التاريخية عند كروتشه لا تحمل طابعا تجريديا صرفا على غرار ولذلك نجده لم يدخر جهدا في التأكيد عل أن الفهم الهيجلي للتاريخ كان فهما خاطئا ،لأنه يلغي القيمة العملية والخبرة المباشرة ويتحول إلى مجرد قوالب منطقية تجرد التاريخ من حقيقته " [18]بذلك يسقط هيجل الواقع العملي لحساب السلب المنطقي فتحلل التاريخية بناء على ثوابت منطقية .

ب – **نقد فكرة المعقول في التاريخ**

يعترض كروتشه أن صيرورة التاريخ تتجه نحو الفكرة المطلقة حينما تتحدد الحقيقة بتظافر الإرادتين الكلية والذاتية ويتجسد الكلي في قوانين الدولة وتنظيماتها العقلية باعتبار الدولة فكرة إلهية فوق الأرض .إن هذا التحليل الذي وظف لصالح الدولة الفاشية بزعامة موسوليني والتي انخرط كروتشه في معارضة منظومتها الفكرية لصالح عودة الديمقراطية ودولة الحق يعتبرها المفكر غير مقبولة ،باطلة وتستحق أن تنعت بالميتة **لقدعلم هيجل قبل البحث في معطيات الفعل ما الذي سيحدث لهذه الأخيرة لقد علمها مسبقا** ،انه تكهن مسبق مرفوض طالما أن فلسفة الروح عند كروتشه كما أنها تربط فنيا بين بين التصور والتعبير فإنها تاريخيا تجمع بين الفكر والإرادة إرادة التغيير لصالح الحياة ،بذلك تتأثر فلسفة كروتشه بالتصور الماركسي القاضي بأن البشر يصنعون تاريخهم وغن رفض أن يكون الدافع محض اقتصادي "فان الذي نفكر فيه على الدوام هو أفعال البشر ،لذلك فالفكر ليس أبدا في ذاته وبذاته مالم يكن تاريخيا "[19]هكذا تصبح مهمة الفلسفة بناء وتركيب يقتضي المراجعة والمجاوزة ،انه خبرة تأملية وفنية تفكك المسلمات فمن يعتقد خاطئا أن الفلسفة بذلك تهدم نفسها "جهلوا أن المرء يبني منزله ثم يهدمه ثم يعيد بناءه وان المهندس الجديد يناقض القديم لا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن من العبث أن نبني بيوتا"[20]تبرز بذلك الهيجلية الجديدة مع كروتشه مستدعية لفلسفة هيجل من حيث أن الحقيقة محددة فكريا وروحيا لكن الفكر الحر ينفتح على راهنيته ناقدا ومسائلا واقعه وسياقه التاريخي حتى وإن اقتضى أن يكيف المتن الهيجلي وتتجاوز مسلماته الأولى حينما تنخرط الفلسفة ناقدة للتاريخ وللحياة ،هكذا يكون كروتشه مثقفا عضويا في اتفاق مع رؤية غرامشية ترفض مهادنة الواقع الذي يصيغه السياسي وفي الوقت نفسه منفتحة على رؤية جمالية تستدعي الإحساس والعاطفة والإنسان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هوامش:

*عتوتي زهية ،باحثة ،مخبر الفينومينولوجيا وتطبيقاتها تخصص الفلسفة والتشكلات الثقافية المعاصرة "أبنية وممارسات"

1-الموسوعة الفلسفية المختصرة ،نقلها عن الانجليزية فؤاد كامل وآخرون ،دار القلم،دط،بيروت ،دس،ص520

2-المرجع نفسه ص519

3-العقل في التاريخ،هيجل ترجمة وتقديم امام عبد الفتاح ،المكتبة الهيجلية،w.w.w.alppogate.com

4-المصدر نفسه

5- بنديتو كروتشه والنزعة التاريخية المطلقة ،خديجة زيتلي ،المركز العربي الاسلامي للدراسات الغربية ،القاهرة 2001 ص44

6-هيجل والهيجلية،رينيه سرو ،ترجمة أدونيس العكرة دار الطليعة للطباعة والنشر ط1،بيروت،1993ص40

7-الموسوعة الفلسفية المختصرة ص 342

8- المجمل في فلسفة الفن،كروتشه،ترجمة وتقديم سامي الدروبي ،المركز الثقافي العربي ط1 بيروت 2001ص 12

9- l'esthétique de Bendeto Croce ,Asjorn arnes ,revue romane ,binb2(1967)2https//tidsskrift..dk

10-المجمل في فلسفة الفن ،كروتشه،ص60

11-المصدر نفسه ص60

12-هيغل والهيغلية،رينيه سرو،ص42

13-المدخل إلى علم الجمال،هيجل،ترجمة ترجمة جورج طرابيشى ،دار الطليعة للطباعة والنشر ط3،بيروت 1988ص53

14-المجمل في فلسفة الفن،كروتشه ص 36

15- المصدر نفسه ص111

16-العقل في التاريخ ،هيجل،ص78

17-بنديتو كروتشه والنزعة التاريخية المطلقة ،خديجة زيتلي ص21

18-المصدر نفسه ص99

19-المصدر نفسه ص140

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

20-كروتشه ،المجمل في فلسفة الفن،ص6

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com